الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

العدد السادس والعشرون ـ السنة الثالثة عشرة
المحرم ١٤١٥ هـ ـ يوليو ١٩٩٤ م

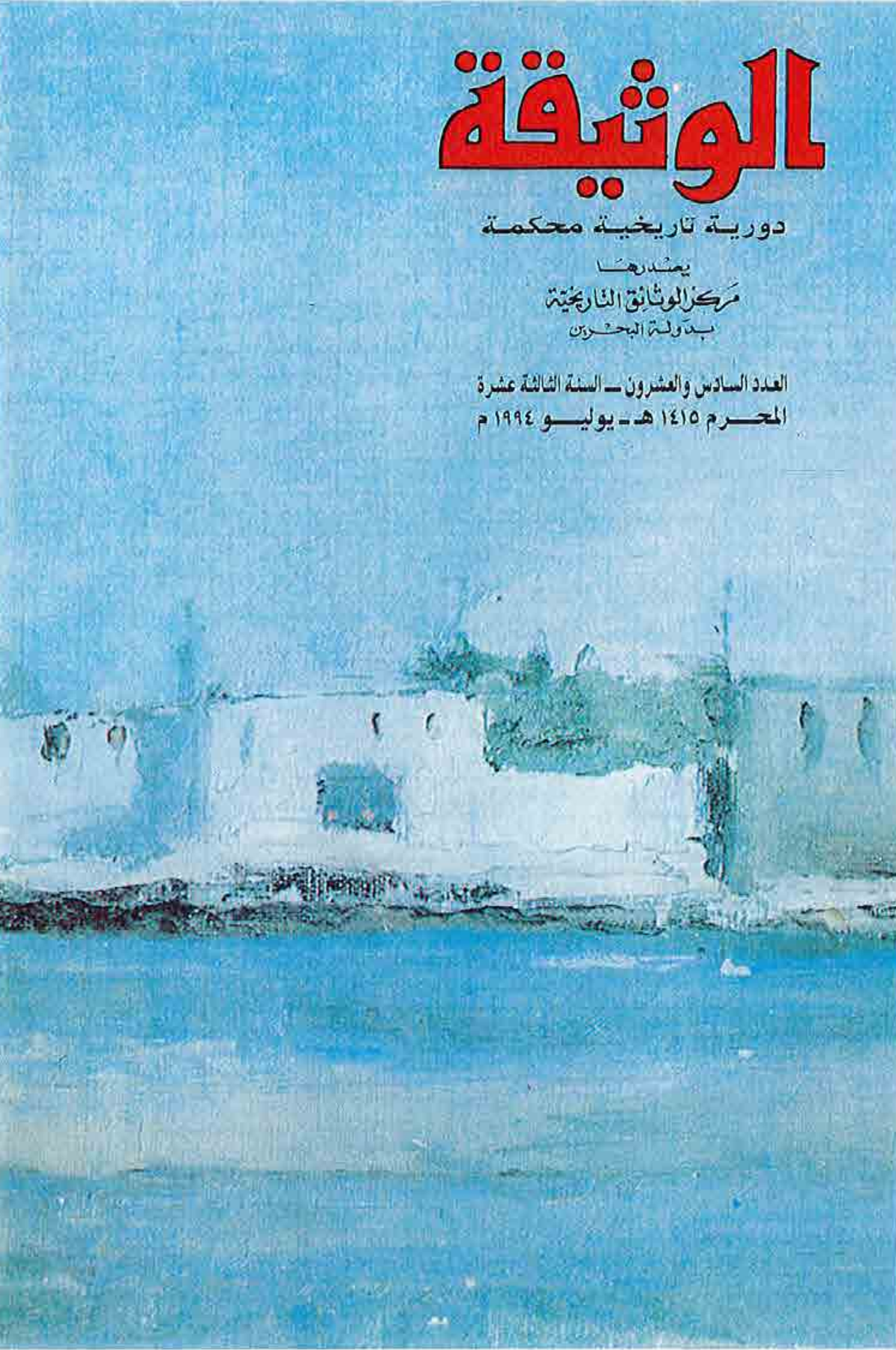

الشاعِ

دراسة موضوع

٣

بقلم : الدكتور
أحمد موسى الخطيب

العيوني

ي بن المقرب

وفنيّة

هذا البحث

في الحلقة السابقة من هذا البحث عرض المؤلف لعصر الشاعر وحياته وتناول فى عصره ظروف الزمان والمكان أما حياته فقسمها الى ثمانى مراحل انتهت بوفاته و فى هذه الحلقه ينتقل المؤلف في دراسته القيمة الى ديوان الشاعر فيعرض بالتفصيل للرحلة الطويلة التى مر بها هذا الديوان مخطوطا ومطبوعا قبل ان ينتقل الى الدراسة الفنية للديوان نفسه .

(الوثـيقة)

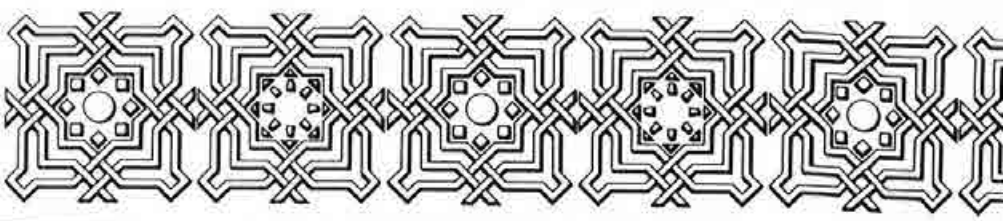

أمين خنجي با يران ، وهى شرح لديوان على ابن المقرب ، بخط محمد رشيد بن ابى القاسم الموسوى الدزفولى ، تاريخ نسخها ١٢٠٨هـ وخطها نسخى ، وهى حافلة بالنوادر التاريخية ، وقد اطلع عليها الدكتور حسين على محفوظ ، في ٢٣ مارس عام ١٩٥٣م ، وأشار اليها في العدد الأول من المجلد الثالث من مجلة معهد المخطوطات ، ويقول انها نسخة جيدة ، وتقع فيما لا يقل عن ٢٠٠ ورقة من القطع الاعتيادى .

ويقول ان صاحب المكتبة المذكور قد توفى ، ثم توفى ولده ، ولا يعرف لمن آلت من بعدهما ، والعثور على تلك النسخة أمر بالغ الصعوبة .(٧)

١٦) نسخة مكتبة الدراسات العليا ببغداد ، تسلسل ٦٦ :

تمت كتابتها في ٣٠ شعبان عام ١٢٢٩هـ ، بخط نسخي، وناسخها مجهول يبلغ عدد أوراقها ٣٢ ورقة، مضافا اليها (٨) ورقات، جاءت متداخلة معها، وليست من شعر ابن المقرب، وهى عبارة عن مجموعة قصائد متبادلة بين ثلاثة شعراء على نمط النقاش، وهم السيد الهادي بن ابراهيم بن على المرتضى بن الوزير، والأسلمي علي بن سليمان، وابن العليف. وليس من شك في أن هذا خطأ عامل التجليد لا الناسخ.

مسطرتها ٢٠ سطرا، وعدد أبياتها ١٢٠٠ بيت، وهى بهذا لا تزيد عن كونها مختارات من شعر الشاعر، منتقاة من أربعين قصيدة له، مرتبة أبجديا، وهى بلا مقدمة، وفيها قليل من الخروم.

وتتفق هذه النسخة مع نسخة الدراسات ٦، ونسختى ميلانو ٩، ١٠، في عدد القصائد وترتيبها، وعدد الأبيات تقريبا. واسم الشاعر في النسخ الأربع «علي ابن المقرب النعماني» والفروق بين هذه النسخ طفيفة لا تكاد تذكر.

١٧) نسخة المتحف العراقى ببغداد ، تسلسل ٨٩٨٩ :

عدد أوراقها ١٤١ ورقة ، ولها مقدمة قصيرة ، لم تتجاوز ثلاثة الاسطر ويبلغ عدد قصائدها ٨١ قصيدة ، غير مرتبة أبجديا ، وبعض القصائد غير مضبوطة بالشكل وعدد أبياتها ٣٥٥٩ بيتا . مكتوبة بخط نسخى جيد ، وقد تمت كتابتها فى الثالث من ربيع الأول عام ١٢٧٧هـ ومسطرتها ١٥ سطرا .

ويلاحظ عدم الدقة في تاريخ بعض القصائد فيها ، وان كنا نجد أحيانا ملاحظات على جانب من الأهمية ، فى مقدمات بعض القصائد ، والنسخة بحالة جيدة .

وتتفق هذه النسخة مع نسختى الموصل ١٢,١١ ، في عدد القصائد ، وترتيبها ومقدماتها ، وفي عدد الأبيات ، كما تتفق معهما فى الأخطاء ، وقد احتفظت مثلهما بقصيدتيه الطائية والزائية .

١٨) نسخة الاسكندرية ، تسلسل ٢٠٢٨ ـ ج :

وهى محفوظة بمكتبة بلدية الاسكندرية ، وقد تمت كتابتها عام ١٢٨٤هـ ، وناسخها مجهول ، مكتوبة بقلم عادى . وهى بلا مقدمة ، وقد كتب في صدرها : ديوان الامام بن المقرب الحماسى اليمنى البغدادى رحمه الله تعالى : وكتب في صدر الصفحة الاولى منها : « هذا ديوان الشاعر الأديب والفصيح اللبيب ، ابن معشوق البغدادى ، عليه رحمة الهادى ، وهو من كتب الادب المعتبرة فى البلاغة وغيرها ، ولله دره » وهذا مما يحمل على الشك فى النسخة ، لولا ان كل ما جاء فيها هو لابن المقرب ، وكان هذا خطأ من الناسخ .

ومسطرتها (١٥) سطرا وقصائدها مرتبة بحسب الحروف الابجدية للقافية ويبلغ عدد أبياتها ٤٨٣٧ بيتا . وقد أتلف السوس كثيرا من أبياتها .

١٩) نسخة دار الكتب المصرية ، تسلسل (٥٢٢) أدب :

وقد تمت كتابتها فى جمادى الآخرة عام ١٢٨٦هـ ، مكتوبة بقلم معتاد ، مشكولة بعض الشكل ، وتقع في ١٢٢ ورقة ، مسطرتها ٢١ سطرا ، وعدد قصائدها ٩٥ قصيدة ، ويبلغ عدد أبياتها نحو (٥٠٤٠) بيتا .

وقد أحتفظت هذه النسخة بقصيدة للشاعر ، يبكى فيها الحسين بن على ، رضي الله عنهما ، ويذكر بعضا من صور التشيع ، وقد سبق الحديث عن موقفنا من هذه القصيدة ، عند الحديث عن معتقد ابن المقرب .

وقد كانت هذه النسخة ملكا للشاعر محمود سامي البارودى ، وتعد خير النسخ وأكملها ، وأكثرها شمولا لشعر الشاعر ، وقد أفاد منها كثيرا المكتب الاسلامي بد مشق فى طبع الديوان ، كما اعتمد عليها الدكتور عبدالفتاح الحلو في تحقيقه له .

٢٠) نسخة دار الكتب المصرية ـ تسلسل (١٠١٧) أدب :

وقد تمت كتابتها فى السابع والعشرين من جمادى الاولى سنة ١٢٩٣هـ وقد كتبت بخط نسخى ، على ورق أصفر ، فى ١٢٢ ورقة ، ومسطرتها ٢١ سطرا ، وناسخها خليل الشبكشى . وهذه النسخة منقولة عن نسخة دار الكتب المصرية ، تسلسل ١٢٦ أدب . فهما متفقتان فى عدد القصائد ، وترتيبها ، وعدد الأبيات .

٢١) نسخة المكتبة البريطانية (غير المشروحة) والمحفوظة تحت (٧٢٩٤) O.M.P :

وعدد أوراقها ١٣٠ ورقة ،

مكتوب بخط متقن .

وآخر قصيدة فى المخطوطة كتب نصفها ، ثم ذكرت قصيدة للنابغة الجعدى ، وهذه القصيدة وسابقتها تشبه فى خطها غير المتقن خط المقدمة . وبعد قصيدة النابغة كتبت كلمة « تمت » ثم صفحة لم أتمكن من قراءتها ، ثم نصف صفحة بعدها لاعلاقة لها بموضوع المخطوطة .

والمخطوطة بدون أخطاء ، ومعظم قصائدها لها شروح ، ومحلاظات هامشية وقد ميزت الكلمات بكتابتها بلون أحمر ، وفي الشروح نجد كثيرا من المعلومات التاريخية عن الدولة العيونية ، وعن قبيلة عبدالقيس . وتنفرد هذه النسخة مع نسخة الاسكندرية فى مقدمات كثير من القصائد ، وتزيد فى مقدمات بعض القصائد عن سائر المخطوطات .

والمخطوطة بحالة جيدة ، وقد رست في أمريكا ، وقد كانت ملكا ـ قبل ذلك ـ لمؤسسة (بريل) في هولندا ، وقد اطلع عليها المستشرق الفرنسي (دى جويا) عندما كتب مقالته عن نهاية القرامطة فى البحرين)[٩] .

٢٦) نسخة ميلانو (MS. AG. XIV 47) :

مكتوبة بقلم معتاد ، وهى مجهولة الناسخ ، وتاريخ النسخ ، ومسطرتها ١١ سطرا وعدد قصائدها (٩٠) قصيدة ، مرتبة بحسب الحروف الأبجدية للقافية ، ويبلغ عدد أبياتها (٤٥٨٢) بيتا . والنسخة بلا مقدمة ، وأول الشعر :

تحن الى بذل النوال اكفهم
حنينا كذات السقب فارقها السقب

وآخرها :

فإن ضيعت حقى لكيز وانكرت
بنو عامر سعى لها واجتهاديا

ثم صفحتان خاليتان ، بعدهما عينية ملحقة بالديوان ، تبلغ أبياتها ١٣ بيتا ، أولها :

دموع اسالتها البروق اللوامع
ووجد اهاجته الحمام السواجع

ويختلف خط الصفحة التى كتبت عليها العينية اياها عن خط النسخة ، كما ان مسطرتها تختلف عن سائر صفحات النسخة ، فمسطرتها ١٣ سطرا ، وقد التزم الناسخ بوضع فاصلة بين صدر البيت وعجزه، وفاصلة بعد عجز البيت ، ولكن أبيات هذه القصيدة الملحقة لم يراع فيها مثل ذلك ، مما يرجح أنها ليست من ديوان الشاعر ، وانها ضمت اليه ـ خطأ ـ عند التجليد أو الترميم .

ولا تحمل هذه النسخة جديدا ، عدا احتفاظها بمقدمة لفائيته التى مطلعها :

بنى مذ غبت عن عينى ما عرفت
غمضا ولابت الا ساهرا دنفا

جاء فيها « وقال أيضا يستنهض ولده بالوصول اليه ، وكان كثير الاشتياق اليه ، وكثير الاشفاق عليه ، وكان قد كبرت سنه، وأصيب بولد

اسمه حسين » والملاحظ ان هذه القصيدة قد احتفظت معظم نسخ الديوان الخطية بمقدمتها ، وهى تختلف عما احتفظت به هذه النسخة ، ويفهم منها أن ابن المقرب قد كتبها على لسان رجل موصلى .

وإلى جانب هذه النسخ التى تناولناها بالوصف ، فهناك نتف من شعر ابن المقرب ، تناثرت فى نسخ خطية أخرى - عثر عليها حديثا بميلانو - حوت مختارات شعرية لشعراء مختلفين ، من أزمنة مختلفة، ومع أن هذه النتف من شعر ابن المقرب لا تضيف جديداً الى ديوانه ، الا أننا سنشير اليها ، ونتناولها بوصف موجز :

أ - نسخة خطية تسلسل A) ١١٩)[١٠]:

وقد تمت كتابتها سنة ١١٣٠هـ، مكتوبة بخط نسخى ، وناسخها غير معروف ومسطرتها ٣٧ سطرا ، وتوجد على الصفحات ٧٨ وجه - ٧٩ ظهر ، من الفصل ٣٤ مختارات من شعر ابن المقرب قليلة الضبط ، ويبلغ عدد أبياتها ٣٩ بيتا .

ب - نسخة خطية تسلسل C) ١٦٣)[١١] :

كتبت فى محرم عام ١٢١٥هـ ، بخط أحمد بن حسين بن عباس بن يوسف بن المهدى ، مكتوبة بخط نسخى ، ومسطرتها ٢٩ سطرا ، ويوجد على الصفحة ٦١ منها ٢١ بيتا لابن المقرب تمثل جزءا من بائيته التى مطلعها :

اتدرى الليالى اى خصم تشاغبه
وأى همام بالرزايا تواثبه

جـ - نسخة خطية تسلسل D ٤١٥)[١٢] :

وقد كتبت بخط فارسى ردىء ، وناسخها مجهول ، وكذلك تاريخ نسخها ، مسطرتها ٢٣ سطرا ، وفي الفصل السادس منها ، وعلى الصفحات ٧٤ - ٧٦ توجد قصيدتان لابن المقرب ، وهناك قصيدة ثالثة مطموسة تماما ، ويبلغ عدد الأبيات الموجودة ٥٨ بيتا .

د - نسخة خطية تسلسل E ٣٥٤)[١٣] :

مكتوبة بخط فارسى غير واضح ، مجهولة الناسخ ، وتاريخ النسخ ، مسطرتها ٣٨ سطرا ، والسطور متداخلة ، مما يجعل قراءتها صعبة ، كما أن ناسخها قد كتب كل بيتين فى سطر . وعلى الصفحة ٢٠٥ وجه ، من الفصل الثالث ، توجد عينيه ابن المقرب ، والتى مطلعها :

إلام اورد عتبا غير مستمع
وانفق العمر بين الياس والطمع

هـ - نسخة خطية تسلسل E) ٤٤٩)[١٤] :

مكتوبة بخط رقعة ردىء ، كثيرة الأخطاء ومسطرتها ٢٩ سطرا ، وتضم ٥٦ بيتا من شعر ابن المقرب ، تمثل داليته التى مطلعها :

خليانى من وطاء ووساء
لا ارى النوم على شوك القتاد

كما تحوى ٣ أبيات من بائيتة التى

أولها :

خذوا عن يمين المنحى أيها الركب
لنسال ذاك الحى ماصنع السرب

ولعلنا لاحظنا أثناء وضعنا لنسخ الديوان الخطية ، أنه من الممكن تصنيفها في عدد من العائلات ، بناء على تشابهها في عدد القصائد وترتيبها ، وما احتفظت به من مقدمات ، وتقاربها في عدد الأبيات ، أو تشابهها في شروح القصائد ، أو تشابهها في الأخطاء ، والحاق بعض القصائد للديوان .

وأول هذه العائلات ، وأكثرها تشابها ، مجموعة النسخ المكونة من :

- نسخة الفاتيكان تسلسل (١١٥٠) .
- نسخة مكتبة الدراسات العليا تسلسل (٢٠٣) .
- نسخة دار الكتب المصرية (١٠٩١) .
- نسخة برنستون غير المشروحة تسلسل (٤٥) .
- نسخة ميلانو تسلسل (C ١٨٥) .
- **نسخة ميلانو تسلسل (E** ١٣٤) .

فقد تشابهت هذه النسخ فى عدد القصائد ، وترتيبها ، وعدد أبياتها .. ومن الواضح أن نسخة الفاتيكان هى أصل هذه المخطوطات ، لأنها أقدمها ، وقد حوت من القصائد ٣٦ قصيدة ، أما سائر النسخ ـ من هذه العائلة ـ فنجد أنها قد ختمت بكلمة (تمت) بعد القصائد الست والثلاثين ، ثم أورد نساخها أربع قصائد أخرى ، وهذا مما يرجح أن الناسخ الذي أخذ من نسخة الفاتيكان قد عثر على هذه القصائد الأربع ، أو اختارها وأضافها من ثم الى النسخة الجديدة .

ولكن نسختى مكتبة الدراسات العليا ، ونسختى ميلانو ، ونسخة دار الكتب المصرية ، زادت عن سائر المخطوطات من هذه المجموعة ، أنها قد ختمت بميمية ليست من شعر ابن المقرب ، بل هى (لجمال الدين على محمد بن زيد بن علي ، المعروف بعلوى البصرة) ولعل تشابه اللقب والاسم (جمال الدين على) بين الشاعر والمذكور ، كان سبب هذا الخلط .

وثانى هذه العائلات ، مجموعة النسخ المكونة من :

- نسخة مكتبة الأوقاف العامة بالموصل تسلسل (٦٨٤) .
- نسخة مكتبة الأوقاف العامة بالموصل ، تسلسل (١٦٢) .
- نسخة المتحف العراقى ، تسلسل (٨٩٨٩) .

وقد اتفقت هذه النسخ الثلاث فى عدد قصائدها ، وترتيبها ، وعدد أبياتها ، كما اتفقت فى الأخطاء ، وفي مقدمات قصائدها ، كما أنها انفردت بالاحتفاظ بقصيدتين للشاعر ، لم نجدهما في سائر مخطوطات الديوان :

أولاهما : طائية ، ومطلعها .

وفي طوله المعروف يد الرجا
وفى بحر جدواه لآمالنا غط

وثانيتهما : زائية ، ومطلعها :

لما حدت ركاب بعيسها
مدح كمال الدين فى ارتجازها

وأقدم نسخ هذه المجموعة ، هى نسخة الموصل تسلسل (٦٨٤) .

أما ثالث هذه العائلات ، فتتكون من :

ـ نسخة دار الكتب المصرية تسلسل (١٢٦) ـ نسخة الاسكندرية ، تسلسل (٢٠٢٨ ـ ج).

ـ نسخة دار الكتب المصرية ، تسلسل (٥٢٢) .

ـ نسخة دار الكتب المصرية ، تسلسل (١٠١٧) .

ـ نسخة مدريد ، تسلسل (٥٢٤١) .

وتمتاز النسخ الأربع الأولى من هذه المجموعة . بأنها أو في النسخ ، وأشملها لشعر الشاعر ، وهى متقاربة في عدد قصائدها ، وترتيبها ، وعدد أبياتها ، وقد زادت عنها النسخة (٥٢٢) بقصيدتين .

أولاهما : العينية المنحولة .

وثانيتهما : يائيته والتى مطلعها :

تخفى الصبابة والالحاظ تبديها
وتظهر الزهد بين الناس تمويها

ولكنها فيما عدا ذلك تتفق معها الى حد كبير .

أما نسخة مدريد ، فلولا ما قد سقط منها ، لكانت متماثلة تماما مع نسخة دار الكتب (٥٢٢) لأنها النسخة اليتيمة التى تشاركها الاحتفاظ بالعينية المنحولة .

ولولا سقوط البائية ـ التى أشرنا اليها آنفا ـ من نسخة دار الكتب المصرية (١٢٦) لكانت أفضل النسخ على الاطلاق ، لأنها اقدم هذه المجموعة ، وأجودها خطا ، وأوفرها ضبطا ، ولكن ضياع هذه القصيدة منها ، هو الذي قدم عليها لدينا نسخة دار الكتب المصرية (٥٢٢) .

ورابع هذه العائلات ، تتكون من :

ـ نسخة برلين المشروحة ، تسلسل (Pet 198) .

ـ نسخة برنستون المشروحة ، تسلسل (٤٤) .

ـ نسخة الماجدية المشروحة بمكة المكرمة .

وهى عائلة واحدة من حيث الشرح ، وتعد نسخة برلين أصل هذه المجموعة ، لأنها أقدمها ، بل أقدم النسخ الخطية والكاملة للديوان ، وتكاد نسخ هذه العائلة تتفق فى شروحها، وخاصة في المادة التاريخية المتعلقة بنهاية القرامطة ، وقيام الدولة العيونية ، والأحداث الهامة التى تمت ابان حكم العيونيين ، ولكن يلاحظ على نسخة برلين أن قصائدها غير مرتبة أبجديا ، فى حين التزمت نسختا برنستون ، ومكة المكرمة الترتيب الأ بجدى للقصائد .

وخامس هذ العائلات ، تتكون من نسختى :

ـ المكتبة البريطانية ، تسلسل (٧٢٨٨) .

ـ ودار الكتب الظاهرية ، تسلسل

(٦٧٣٤) .

وتنفرد هاتان النسختان باحتفاظهما بعدد من القصائد والأبيات ، التى قد خلت منها سائر النسخ الخطية للديوان ، وأرجح أن يكون ناسخ الظاهرية ، قد أخذ قصائد النسخة البريطانية المشروحة دون شرحها ، محتفظا بترتيبها ، ثم أضاف بضع قصائد للشاعر من مصدر آخر . لذا فعدد القصائد والأبيات متقارب في كلتيهما ، وقد الحقت بهما لامية العجم ، ولكن نسخة الظاهرية قد أتبعتها بلامية العرب .

ومع أن هاتين النسختين قد احتوت كل منهما على ما يقرب من نصف شعر ابن المقرب الا أن قيمتهما مردها الى القصائد التى انفردتا بها من شعر الشاعر دون سائر النسخ الخطية .

أما نسخة «خنجى» المشروحة والمفقودة ، فيمكن ادراجها ـ حسب ما توفر لى من معلومات عنها ـ ضمن العائلة الرابعة .

وبالنسبة لنسخة المكتبة البريطانية غير المشروحة ، تسلسل (٧٢٩٤) فقد اختلفت فى عدد قصائدها ، وترتيبها ، وعدد أبياتها عن سائر النسخ ، مما جعلنى أتحرز في ادراجها ضمن أى العائلات الخمس ، وقد التزمت مثل هذا الحذر بالنسبة لنسخة ميلانو (MS. AG. XIV 47) .

أما بقية النسخ فهى لا تزيد عن كونها مختارات يسيرة من شعر ابن المقرب .

الديوان مطبوعا :

تم طبع ديوان ابن المقرب بخمس طبعات، في أربعة أقطار مختلفة، تفاوتت في الجودة والاتقان، وعدد القصائد والأبيات، والضبط، والشرح، وتخريج الأبيات كما اختلفت في الأصول التي اعتمدت عليها، وأقدم هذه الطبعات الخمس هي:

الطبعة المكية :

وقد تم طبعها طبعة حجرية بمكة المكرمة في أواسط شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠٧هـ أيام العثمانيين، ولكن هذه الطبعة رديئة وسقيمة وغير محققة، خالية من الشرح والضبط، لذا فقد حفلت بكثير من الأخطاء المطبعية والاملائية، وكثير من الأبيات معناها مضطرب، وتفتقر للمزيد من الدقة والاتقان في اخراجها، وعدد قصائدها ٨٣ قصيدة، وعدد أبياتها ٣٨١٢ بيتا، والقصائد فيها مرتبة بحسب الحروف الهجائية للقافية، ولا تخلو قصيدة فيها من سقوط أبيات منها، وقد تداخلت بعض القصائد مع غيرها كما حدث في قصيدته، والتي أولها:

تجافَ عن العتبى فما الذنب واجِدُ
وهب لصروفِ الدهرِ ما أنت واجِدُ

فقد تداخلت مع كافيته. وهذا ما لاحظناه وسجلناه أثناء وصفنا لمخطوطة اسبانيا.

كما ان هذه المطبوعة لم تلتزم الترتيب الهجائي في بعض القصائد.

وقد كتب في مقدمة النسخة: «هذا ديوان الشاعر اللبيب الفاضل الأديب أبو عبدالله محمد بن علي بن المقرب بن المنصور بن مقرب بن علي بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم بن محمد القيولي الاحسائي، بل الله ثراه.

وفي الصفحة الأخيرة من الديوان، وبعد أن انتهى من شعر الشاعر، ذكر سبعة أبيات للفقيه النسابة أحمد بن محمد الأشعري، ثم ذكر خمسة أبيات أخرى ولم يذكر صاحبها. وهذه اضافات تخرج بها عن موضوع الديوان.

وقد تم طبعها على نفقة الشيخ عبدالله بن سعيد باخطمه، بالمطبعة الميرية بمكة المكرمة. ولكن هذه المطبوعة لا يمكن للباحث أن يعول عليها وحدها، لكثرة أخطائها، واضطرابها، واغفالها الكثير من شعر الشاعر، وعدم ضبطها، وخلوها من الشروح والتعليقات، وهي نادرة الوجود، ولعل أحد الباحثين كان يقصدها حين وصفها بقوله «وهناك طبعة مصرية صفراء مغلوطة غلطا فاحشا»(١٥).

الطبعة الهندية :

وكانت الطبعة الثانية طبعة حجرية في صفر ١٣١١هـ، بمطبعة د ت برسار في «بمبي»، وعلى نفقة الشيخ عبدالعزيز بن أحمد العويصي، وعقب عليها الشيخ عبدالله بن محمد بن صالح الزواوي المدرس بالمسجد الحرام آنذاك، وصححها الشيخ محمد بن ابراهيم بن جغيمان، وقام بجمع الشعر الشيخ حمد بن خليفة العيوني الاحسائي، ولا نعرف أهو بهذه النسبة ينتمي الى (العيونيين) الذين منهم الشاعر، أم انها مجرد نسبة الى بلدة العيون، وكانت المطبوعة بخط رئيس المحررين بالهند آنذاك ملا محمود بن الشيخ آدم المقدم الكوكيني الشافعي فقد تم الطبع بواسطة الحجر حسبما هو شائع في الطباعة بالهند يومذاك.

وقد جاء في صدرها مقدمة مفيدة، لا نعلم كاتبها، ألقت بعض الضوء على حياته وأخلاقه ورحلاته وعلاقاته بحكام عصره. وهي تتفق مع كل النسخ المخطوطة ـ التي احتفظت بهذه المقدمة ـ في الجزء الأول منها، وفي صدر النسخة «ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا». هذا ديوان أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء، صاحب الحماسة المرتوي من مورد الشرف بهنى كاسه، المتغذي بلبان المجد، والمزري بسقط الزند، ذي الخطر الكبير، علي بن مقرب بن علي العيوني الأمير، صب الله على قبره سجال الرحمة، وأكرم نزله، وسائر الأمة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، وكل ناسج على منواله».

وهذه النسخة محلاة بالضبط الخفيف في بعض المواضع، والكثير من قصائدها مشروح، وهي تعد مصدرا هاما بالنسبة لتاريخ البحرين بعامة، والعيونيين بخاصة، إلا أن الشارح

المجهول قد جنح به الخيال في بعض الأحيان، فسجل أوهاما لا يقبلها العقل، ولا يقرها المنطق.

وفي هذه النسخة بعض القصائد والأبيات التي خلت منها المطبوعة السابقة والملاحظ ان جامع الديوان، ومصححه ومن عقب عليه، لم يطلع أحدهم على النسخة المكية، علما أن ما بينهما من الزمن لا يزيد عن سنوات أربع، لأن هناك قصائد وردت في الأولى، وخلت منها الثانية، فبائيته التي مطلعها:

أبى الدهر أن يلقاك إلا محاربا
فجرد له سيفا من العزم قاضبا

وبائيته التي أولها :

دع الكاعب الحسناء تهوى ركابُها
وتُبلى لها في حيث شاءت قبابُها

وبائيته التي مطلعها :

منال العلى بالمرهنات القواضب
وسمر العوالي والعتاق الشوازب

خلت منها كلها مطبوعة الهند، كما خلت من لاميته التي مطلعها:

يا ساهر الطرف من خوف ومن وجل
نم في جوار الهمام السيد البطل

وعدد قصائد هذه النسخة ٩٢ قصيدة، وعدد أبياتها ٤٧٦٦ بيتا، والقصائد فيها مرتبة بحسب الحروف الأبجدية للقافية، ولم يحدث اضطراب في ترتيبها الا في موضع واحد، حين تداخلت داليته مع قافية الراء، الأولى ومطلعها:

طما بحرُ الهموم به فماذا
وعوضه من الغمض السهادا

والأخرى وأولها :

كره الله ما أحب الاعادي
وأبى ما أراد أهل العناد

وهذه المطبوعة أقل من سابقتها خطأ، وتفوقها في عدد القصائد والأبيات، وامتازت عنها بالشرح والتعليق، وبالمقدمة الكاملة في صدرها. وهي أيضا نادرة الوجود كسابقتها.

مطبوعتا المكتب الاسلامي بدمشق:

الأولى : فبعد أن أصبحت نسخ الديوان نادرة الوجود، أمر صاحب السمو الشيخ علي آل ثاني ـ حاكم قطر الأسبق ـ باعادة طبعه وتوزيعه على نفقته الخاصة وكان هذا دأبه في نشر كل نافع مفيد من كتب العقيدة، والسنة، والفقه، والأدب، وتمت طباعته بالمكتب الاسلامي بدمشق عام ١٣٨١هـ، وقد اعتمد المكتب عند الشروع في طبعه على نسخة من المطبوعة الهندية، وجدنا انها تحتوي على القصائد التي خلت الأخيرة منها، وهذا يعني انه قد اعتمد أيضا على نسخة من المطبوعة المكية، لذا فقد احتفظت هذه النسخة بصفات المطبوعة الهندية، التي ذكرناها آنفا عند حديثنا عنها، ولكن نسخة المكتب الاسلامي تزيد عنها في عدد القصائد والأبيات، نظرا لاعتمادها على مصدر آخر، كما انها تقل عنها في الأخطاء، وقد وضع مع ديوان ابن المقرب، ديوان الشاعر فتح الله بن النحاس، في مجلد واحد، وجاء بعد ديوان ابن النحاس ملحق خاص بديوان ابن

المقرب. فقد عثر المكتب الاسلامي بدمشق على نسخة خطية لديوان ابن المقرب، بالمكتبة الظاهرية، بعد أن تم طبع الديوان، فبادر الى مقابلة مطبوعته عليها، وعند الانتهاء من المقابلة تبين له:

أ - وجود أكثر من قصيدة في المخطوطة خلت منها مطبوعته.

ب - سقوط بعض الأبيات من القصائد المطبوعة.

جـ - تصويب كثير من الألفاظ المحرفة التي جاءت في الديوان المطبوع في الهند، ولم يستبن وجه الصواب فيها.

لذا بلغ عدد أبياتها ٥٣٢٩ بيتا، في الملحق منها ٣٤٩ بيتا، وبهذا فقد زادت في عدد أبياتها عن نسخة الحلو - التي اعتمدناها أساسا لدراستنا - ٦٧ بيتا، وعند مقابلتها على نسخة الحلو، وجدنا أن هناك أبياتا فيها لم ترد في نسخة الحلو وعددها ٢٣٢ بيتا، كما ان هناك أبياتا في نسخة الحلو لم ترد فيها وعددها ١٦٥ بيتا، وعدد قصائدها ٩٧ قصيدة، فقد نقصت عن نسخة الحلو قصيدة واحدة، هي عينيته في بكاء الحسين، المشكوك في نسبتها اليه.

وقد جاء في صدر النسخة تعريف موجز بالشاعر، مأخوذ من مقدمة النسخة الهندية، ولكن من قدم لها، ذكر أن النسخة مشروحة من قبل الشيخ عبدالعزيز بن أحمد العويصي، وهذا خطأ بيّن، لأن النسخة السابقة أشارت أن المذكور قد طبعها على نفقته، وليس شارحها، فشارحها مجهول.

وهذه النسخة ذات طابع تجاري، لأن المكتب لم يتوخ المنهج العلمي في اخراجها، ومقابلتها على ما بين يديه من نسخ خطية أو مطبوعة، وهي خير من سابقتيها.

الثانية : ثم نهض المكتب الاسلامي بدمشق، بطبع الديوان مرة أخرى عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، تلافيا لما جاء في الطبعة الأولى من أخطاء، وتنفيذا لأمر صاحب السمو الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني، ولكنه لم يصدر حتى الآن سوى الجزء الأول منه، ويقع في ٥١٣ صفحة، وآخره كافيته التي مطلعها:

أَمِنْ دِمنَةٍ بينَ اللّوى والدكادِكِ
شُغِفْتَ بتَذرافِ الدموعِ السوافكِ

ويضم ٥٣ قصيدة من ديوان الشاعر، ويبلغ عدد أبياتها ٢٥٧٥ بيتا. وفي صدر الديوان مقدمة أكثر ايجازا من مقدمة الطبعة الأولى، يليها اشارة لمخطوطات الديوان المصرية، والسورية، واثنتين من المخطوطات العراقية، ولم يتعد ذلك الى وصفها.

وقد حاول المكتب في هذه الطبعة أن يستوفي جميع ما ورد لابن المقرب من شعر فيما بين يديه من مصادر، فشملت القصائد والمقطوعات والأبيات التي لم ترد في الطبعة الأولى، مرتبة بحسب مواضعها، وقد استغنت هذه الطبعة عن ملحق الطبعة

الأولى.

وقد ضمن المكتب طبعته هذه عينية ابن المقرب في بكاء الحسين، ومصدره في ذلك النسخة الخطية الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢ أدب، وهذا ما اعتمد عليه الحلو أيضا، وقدم لها المكتب بقوله «هذه القصيدة موجودة في مخطوطة واحدة من مخطوطات الديوان، وهي ان صحت تثبت تشيع الشاعر»[١٦].

كما قام بتصحيح ترتيب الأبيات تقديما وتأخيرا، وأثبت مقدمات بعض القصائد التي لم تتوفر له مقدماتها في الطبعة الأولى، وصحح بعضها الآخر أو أكمله، وانتفى من روايات الأبيات أصلحها معنى ومبنى ووزنا، وصحح أخطاء الشرح وتصحيفاته. كما شرح بعض ما أهمله شارح الديوان من المفردات الغريبة الضرورية، وضبط النص بشكل أفضل من النسخة السابقة. لكنه سار على المنهج السابق في اخراجه، ولم يلتزم منهجا علميا في ذلك، فاستغنى عن ذكر أسماء النسخ المختلفة عند تصحيح بعض الكلمات أو التعابير، واستبدال بعضها ببعض، [١٧] هذا بأنه حرص على راحة القارىء، وعدم ارهاقه بالروايات المختلفة وتشويقه، لذا اعتمد في تصحيح التصحيف والتحريف الكثير على اجتهاده الخاص، ولم يذكر اختلاف روايات النسخ الا حينما عجز عن الوصول الى رأي قاطع.

كما ذكر أنه قد اعتمد على نسخة المتحف العراقي الخطية، وأثبت في مقدمة الديوان صورة للصفحة الأولى منها، ولكن هناك قصيدتان فيها، لا وجود لهما في طبعته، الأولى طائيته التي مطلعها:

وفي طوله المعروف طول يد الرحا
وفي بحر جدواه لآمالنا غط

والثانية زائيته والتي أولها:

لما حدت ركائب بعيسها
مدح كمال الدين في ارتجازها

ولو تم انجاز الجزء الثاني من الديوان، لكانت هذه الطبعة أفضل من سابقتها، ولكن من المؤسف أن يتوقف هذا العمل الجليل عند هذا الحد.

نسخة الحلو :

وهي رابع طبعات الديوان في الترتيب الزمني، وأسبق من الطبعة الثانية للمكتب الاسلامي، قام بتحقيقها الدكتور عبد الفتاح الحلو، وسلك في تحقيقها منهجا علميا، واعتمد في ذلك على المخطوطات المصرية للديوان، واتخذ من النسخة الخطية ــ المخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢ أدب ـ أصلا. كما اعتمد على مطبوعتي مكة والهند، فأثبت الروايات المختلفة للبيت، أو للكلمة، أو لمقدمات القصائد، وقام بعمل مقدمة مناسبة له، استفاد فيها كثيراً من مقالة [١٨] للأستاذ حمد الجاسر.

وهي طبعة مشروحة، اعتمد في شرحها على الشرح المذيل به الديوان

المطبوع في الهند، ولكنه بذل جهدا كبيرا في شرح ألفاظ غفل شارح النسخة الهندية عن شرحها.

وقد تمت طباعتها في القاهرة عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، وتولت نشرها مكتبة التعاون الثقافي بالاحساء، لصاحبها عبدالله عبدالرحمن الملا.

وتعد هذه النسخة أفضل نسخ الديوان المطبوعة، وأكملها، وأوفاها لشعر الشاعر وهي النسخة الوحيدة المحققة تحقيقا علميا، ولذلك اتخذتها المصدر الأساسي في دراستي لشعر ابن المقرب، وهي تضم ٩٨ قصيدة، مرتبة بحسب الحروف الأبجدية للقافية، ويبلغ عدد أبياتها ٥٢٦٢ بيتا. وتفوقها طبعة المكتب الاسلامي الأولى في عدد الأبيات ـ كما أشرنا سابقا ـ ولكنها ـ طبعة المكتب الاسلامي الأولى ـ مضطربة كثيرة الخطأ، وخاصة في ملحقها، حيث يجد القارىء صعوبة في رد الأبيات الى مواضعها من القصائد، فليست هناك اشارة ما الى مكان هذه الأبيات أو تلك من الديوان.

وقد أخذ البعض [١٩] على الدكتور الحلو أنه ضمن طبعته عينية الشاعر في بكاء الحسين، مع أنه يشك [٢٠] في صحة نسبتها الى الشاعر. ولكنه آثر أن يثبتها في الديوان حفاظا على الأصل المخطوط.

ولكن ما يؤخذ عليه حقا، اغفاله لنسخة المكتب الاسلامي المطبوعة ١٣٨١هـ واعتماده على النسخ الخطية المصرية وتجاهله سواها، ولو تيسر له الاطلاع على مطبوعة المكتب، وبعض المخطوطات الأخرى، لأمكنه بذلك أن يحقق لمطبوعته قدرا أكبر من الكمال، ولكن ما بذله فيها من جهد كبير، يستحق عليه الثناء والتقدير.

أغراض الشاعر الشعرية

بعد أن تتبعنا ديوان ابن المقرب، وما اشتمل عليه من شعر يبلغ خمسة آلاف واربعمائة وواحدا وعشرين بيتا وجدنا أن أغلب شعره ذاتي، وأن ذاته متضخمة فيه الى حد كبير، لذا رأيت ـ في تناولي لأغراض شعره ـ أن تكون الذاتية هي الأساس، فشعر ابن المقرب يصدر في معظمه عن ذاته، وانفعاله بالأحداث من حوله. وأما الغيرية عنده فهي أمور اضطرارية.

ومن أجل هذا سنتناول موضوعات شعره بناء على مدى قربها أو بعدها من نفسه، إن غرضا كالمدح يتأخر عن الكثير من أغراضه، علما بأنه أوفرها ـ من حيث الكم على الاطلاق.

(١)
الفخر

يأتي الفخر في المرتبة الاولى بين سائر أغراضه، من حيث قربه من نفسه، وبلغت ابيات الفخر في ديوانه تسع مائة وستين بيتا، تناثرت خلال اثنتين وخمسين قصيدة، واستقل الفخر في خمس قصائد منها.

ويرى ابن رشيق ان الافتخار

ضرب من المديح ، الا ان الشاعر يخص به نفسه وقومه .[٢١] ويأتي فخر ابن المقرب ـ غالبا ـ خلال قصائده ، في سائر فنونه الشعرية فهو لا ينسى نفسه اذا مدح او هجا ، او تغزل ، او شكا ، وقد يتقدم الفخر على المدح في قصائده ، فحين مدح الامير العيوني مسعود بن محمد بن على بن عبدالله بن على ، استهل مدحه بقوله :

اتدري الليالي اي خصم تشاغبه
واي همام بالرزايا توائبه[٢٢]

وبعد ثلاثين بيتا من الفخر بالنفس يخلص الى ممدوحه ، وقد كان الفخر ـ احيانا ـ سببا في تأخير المدح في قصائده .

ولكن ما دواعي الفخر عند ابن المقرب ؟

ولماذا كانت له هذه المكانة في شعره؟

لقد تواضع الدارسون على ان «العربي نزوع من فطرته الى العلاء ، ميال الى التعالي والمباهاة ، شديد الاندفاق بما في نفسه من نزعات ، والتغني بما فيها من حسنات ، شديد التطلع الى ما مضي من الزمان ، والى مآثر الآباء والاجداد .. كما ان الاخلاق والعادات التي فخر بها العرب كانت ثمرة حاجاتهم ، وصور معيشتهم وقد فخروا بكرم العنصر، وقوة العصبية ، ومنعة الجانب ، والشجاعة ، والكرم ، والاباء ، والوفاء ، والمروءة» [٢٣] .

وقد كان لنشأة ابن المقرب البدوية ما مكن فيه النزعة المفاخرة ، حتى اصبحت طبعا فيه ، كما كان لمعاكسات الزمان ، وظلم ذوي القربى ، ومناهضة الحساد ، ما جعله يعمد الى الفخر تفريجا وتعزية للنفس ، وتعويضا لما يحسه من مهانة واحباط .. هذا الى جانب نشأته في بيت امارة وفروسية ، بالاضافة الى عراقة الاصل ، ومكانة الآباء الذين سجلوا صفحات ناصعة من البطولة في جاهليتهم واسلامهم .

وفخر ابن المقرب في معظمه فخر ذاتي ، يدور حول العقل والقلب واللسان والساعد ، كما يدور حول القبيلة والآباء ، والاجداد . والى جانب هذا اللون من الفخر يوجد قليل من الفخر الحربي .

فقد فخر بقومه ، وفخر بنفسه ، اما فخره بقومه ، فهو فخر العزة والاعجاب ، وكانت مدائحه الكثيرة في امراء اسرته العيونية ميدانا رحبا لفخره بقومه . ففي قصيدته التي مدح فيها الامير ابا ماجد محمد بن على بن عبدالله بن علي العيوني ، حين ملك الاحساء ، يقول مفتخرا بقومه :

فقالت : ارى البحرين دارك والهوى
بنيك [٢٤]وهذا ما ارى فمن الشعب
فقلت : سلى حيى نزار ويعرب
باعظمها خطبا اذا استبهم الخطب
وامنعها جارا واوسعها حمى
واصعبها عزا اذا استرحل الصعب
وانهرها طعنا وضربا ونائلا
اذا اغبرت الآفاق واهتزت الحرب
واقتلها للملك صعر خده
قديم انتظام الملك والعسكر اللجب
فقالت : لعمرى انها لربيعة
بنات المعالى لا كلاب ولا كلب[٢٥]

ثم يضيق دائرة الفخر لبعض قومه (آل ابراهيم) من ربيعة ، وكان هذا

دأبه ، فيقول من القصيدة ذاتها :

ولو سئلت يوما ربيعة من بهم
لها خضعت وارتجت الشرق والغرب
ومن خيرها طرا قديما وسالفا
وانجبها عقبا اذا اخلف العقب
لاخبر اهل العلم ان ربيعة
رحى آل ابراهيم في سرها القطب
هم الناس كل الناس والناس فضلة
اذا ناب أمراط من حمله الصلب
بهم يدرك الشاو البعيد وعندهم
للتمس المعروف ذو مربع خصب
وفيهم رباط المكرمات وراثة
يورثها المولود والده الندب
ولولا اياديهم وفضل حلومهم
لزلزلت الارضون وانقضت الشهب
خفاف اذا داعي الوغى غير انهم
ثقال اذا خفت مصاعيها الهلب[٢٦]

وتضعنا هذه الابيات وسابقتها امام صورة واضحة من صور الفخر القبلي عنده ، والتي يردد فيها معاني السابقين ، ولا سيما عندما افتخر بأرومته من ربيعة ، فخلع عليها صفات المنعة ، وسعة الحمى ، والعزة ، والشجاعة ، والاقدام ، مستخدما «افعل التفضيل» للتعبير عن مطلق التفوق لقبيلته في هذه الصفات والاخلاق .

وحين افتخر بقومه (آل ابراهيم) خلع عليهم صفات عصره المألوفة ، والتي استقرت في وجدان شعرائنا ، من العقل ، والحلم ، وحسن السياسة ، والشجاعة ، والكرم .

وتبدو من فخره بقومه ثقافته والمامه بتاريخ قبيلته في ماضيها وحاضرها ، ومن ذلك قوله في قصيدته التى يمدح فيها الامير محمد بن ابي الحسين العيوني :

فقومي الأولى اجلوا قضاعة[٢٧] عنوة
ودانت لهم كلب[٢٨] ونهد[٢٩] وخولان[٣٠]
وهم فلقوا هام التبابع اذ طغت
بقربه وادي خزازى[٣١] وسلان[٣٢]
غداة تولت حمير في جموعها
وذاق الردى في ملتقى الخيل صهبان[٣٣]
وهم ضربوا عبد المدان[٣٤] بمنعة
وقد شرعت فيهم سيوف وخرصان
وجاءت بزيد الخيل[٣٥] قسرا خيولهم
اسيرا لها والجو بالنقع ملان
وهم نصروا بعد النبي وصبه
ولا يستوي نصر لديه وخذلان

ومن القصيدة ذاتها يقول :

وعادت بهم من دهرهم آل منذر
فصانهم حامي الحقيقة صوان[٣٦]
ولم يحم كسرى من حدود سيوفهم
ليوث لها بالجو زار وزروان
وهم ملكوا اكناف نجد وطاطات
لعزتهم بالشام عمرو وغسان
وسارت الى البحرين منهم عصابة
مصاليت غارات مغاوير غران
فعن هجر ذادوا القرامط عنوة
وقد شركت فيها عتيك وحدان[٣٧]

والملاحظ ان هذه الامجاد القبلية قد اخضعها لفكر منظم بعض الشيء ، فجاءت متسلسلة زمنيا ، فمن الجاهلية الى الاسلام الى قتال القرامط والقضاء عليهم .

واما فخره بنفسه فهو تطلع الى العلياء ، واعجاب بشجاعة القلب ، وحزم في الامور وشاعرية خلاقة متفوقة ، فمن قصيدة له يفتخر فيها بنفسه ، يدير حوارا مع فتاة ما ارادت ان تثنيه عن عزمه في الارتحال :

اكل الدهر نأى واغتراب
اما لدنو دارك من تدان

فنفسي تناجيني بإدراكها وحدى[٤٩]

وفي موضع آخر يقول :

ليس بيتكم في العز مركزه
بيتي فما كان من فخر فمن قبلي[٥٠]

من القصيدة ذاتها يقول :

كسوت قومي والبحرين ثوب علا
يبقى جديدا بقاء الحوت والحمل[٥١]

ونستطيع بعد هذا العرض لفخر شاعرنا ، ان نرد هذا الكم الوفير من شعر الفخر الى فلسفة الحرمان التي تعد بحق اهم بواعث فخره والتي تستدعي ـ غالبا ـ حديث المحروم عن نفسه وهمته ، وعن سمو مكانته وكرم محتده .. فالفخر عنده عملية تعويض ، وضرب من التوازن النفسي ، وستر لعذاب النفس ، وصراعها الدفين ، ومحاولة دائبة لاقناع شانئيه وحارميه بأنه ما زال الاقوى ، وانهم لن يستطيعوا النيل منه ، هذا بالاضافة الى ان الفراغ الذي اكتنف حياته ابان حرمانه ، قد افسح له ـ بالتالي ـ الحديث عن نفسه بخاصة ، وعن قبيلته بشكل عام .

(٢) الشكوي

وكما كان الحرمان من أهم بواعث الفخر عنده ، فهو يمثل الباعث الأول والأخير لشكواه .. عاش شاعرنا حياته تحدوه آمال عريضة ، فلم يكن يرى نفسه أهلا للامارة والرياسة فحسب ، بل لم يكن يرى في أسرته ما هو أجدر منه بها ، ولكن أبناء عمه أحسوا بدخيلة نفسه ، وربما بدر منه ما كشف ـ مبكرا ـ عن طويته ، فأجهضوا احلامه وأمانيه ، وأعلنوها حربا شعواء ضده ، وكان لهذا أثر عميق المدى ، بعيد الغور ، واضح المعالم ، بين السمات ، فلا نكاد نقرأ قصيدة له دون أن نشتم منها رائحة الحرمان ونرى ارزاء الدهر تتصاعد من بين الاحرف وخلال الكلمات ، ودون أن نسمع أنين البخس والتعس يعلو عبر الاجواء في نغمات لاهثة ..

والحرمان دائما ، أصل في تدفق الشعر ، واتقاد الشاعرية وتحريك الحياة الراكدة الرتيبة ، « ولولا الحرمان ، ولولا النكبات ، لما كان هناك في عالم الشعر الحي ، طرفة بن العبد ، أو قيس بن الملوح أو أبو فراس الحمداني أو أبو الطيب المتنبي أو ابن المقرب العيوني .. مثلا »[٥٢]

فمن غير المدهش ـ اذا ـ أن تلى شكواه فخره ، وتحظى بهذه المكانة بين سائر أغراضه ، فشكواه لصيقة بفخره الى حد كبير ، وكثيراً ما كان ينطلق في فخره من مواقف شكايته ، وقد بلغت أبياته في الشكوى خمسمائة وسبعين بيتا ، جاءت متداخلة مع سائر اغراضه في ثلاثين قصيدة ، وأكثر ما تأتى الشكوى عنده مع الفخر ، فالمدح فالنصح .

ولكن ما دوافع شكواه ، ومم كان يشكو ؟

نكب ابن المقرب بأيدي أبناء عمومته ، وظلمه ذوو قرباه ، وحورب في ماله ، ومكانته ، وسجن وشرد ونبذ ، وتعالى عليه أراذل القوم ارضاء للسلطة الحاكمة التى كان يروقها

ما يحدث أمام ناظريها ، والنفوس الكبيرة أشد احساسا بالظلم ، وأكثر ضيقا به .

لذا جأر بالشكوى لمن أحبهم وأخلص لهم من الفضليين من أبناء عشيرته الأقربين ، فكانت شكواه لهم استهجانا ودهشة لموقفهم منه ، ففى قصيدة له يخاطب فيها الأمير الفضل بن محمد بن أبي الحسين العيونى يقول :

خليلى كم اطوى الليالى وعزمتى
تنولنى الجوزاء والجد قاعد
وكم ذا أناجى همة دون همها
نجوم الثريا والسهى والفراقد
ويقعدنى عما أحاول نكبة
جرت وزمان عاثر الجد فاسد
وإخوان سوء ان المت ملمة
بسوء فهم اساسها والقواعد
يسرون لى ما لا اسر فكلهم
على ذاك شيطان من الجن مارد
لقد بذلوا المجهود فيما يسؤونى
وقد كنت ارمى دونهم واجالد(٥٣)

ثم يفصح الشاعر عن مواطن عجبه ، فيقول من القصيدة ذاتها :

واعجب مالا قيت ان بنى ابى
حسام لمن يبغى جلادى وساعد
عزيزهم انْ لذت يوما بظله
رايت سموما وهو للخصم بارد
وسائرهم إما ضعيف فضعفه
له عاذر او مبغض لى مجاهد
هم الحمونى النائبات واولعت
بلحمى اسود منهم واساود
وهم تركوا عمداً جنابى ومربعى
من الجدب لا يرجوبه الخصب رائد
وهم شمتوا بي حاسدى وذلكم
من الامر ما لا ترتضيه الا ماجد

لقد أجاد الشاعر في هذه الأبيات تصوير موقفه في صراحة وصدق . حتى ليكاد المرء يشفق عليه ، وهو صاحب النفس الكبيرة المتمردة ، وكيف قد غدا هدفا للضيم ، يلوذ ـ مهيض الجناح ـ بالسادة فينكرونه ويؤذونه ، وبقية أبناء عمه لا حول لهم ولا طول . فهم أما ضعيف لا يرجى منه خير ، أو حاقد له ممعن في البغض ، فقد أذاقه أبناء عمه ألوان الهوان وصنوف الأذى ، وكان ابن المقرب يرى أن مانالة ، انما هو بسبب ميله الى الفضليين من البيت العيونى .

ولا تنسين مانالنى في هواكم
وقد ظفر الساعى وقل المساعد(٥٤)

لذا فلا غرابة في شكواه لهم ، لما أصابه في حبهم ، وهم قادرون على انصافه ولم تكن شكواه موجهة لآل الفضل فحسب ، بل شكا هم نفسه لسائر امراء العيونيين ، ممن كانت لهم السيادة في الاحساء أو القطيف ، ولكن أولئك وهؤلاء كان قد وقرفى أذهانهم أن ابن المقرب طامح الى ما بين أيديهم من سلطة ، فصموا آذانهم عن شكواه ، ولم يجد بدا من أن يحمل آلامه وآماله ـ على مضض منه ـ الى خليفة المسلمين . وحكام العراق ، ليجأر بالشكوى بين أيديهم ، وكأنه ـ على ما يبدو ـ كان يأمل أن ينصفوه منهم .

فكانت شكواه في الاحساء ، والقطيف ، والعراق ، هي مطالبة بحقوقه المغتصبة والمهدورة ، من مال ، وحرية ، وأمن . واحترام .. ففي قصيدته التى يمدح فيها الخليفة العباسى الناصر لدين الله يقول :

وقد كنت ذا مال حلال وثروة
يضاعف اكرامى وترجى مكارمى
فاعرانى الوالى المشوم وفاتنى
بما حزته من ضيعة ودراهم
فمال على حالى ومالى وثروتى
مالى واصغى لاختلاق النمائم
وبت عزائى السجن في مدلهمة
يجاوبنى فيها ثقال الاداهم
واخرجنى من بعد يأس وقد اتى
على نشبى اشكو الى غير راحم[٥٥]

وقد شكا الايام والليالى ، وما يحملنه اليه من مصائب متزايدة ، وأنها هى الأخرى قد قلبت له ظهر المجن ، وتمادت فى عدائها ، ومكنت للشقاء من نفسه .

ابت ثوب الايام الا تماديا
فوا شقوتا ما لليالى وماليا
اذا قلت يوما حان منها تعطف
رايت رزاياها تسامى كما هيا[٥٦]

ومما كان يضاعف ألمه أن المخلصين من أصدقائه قد انقلبوا عليه ، ولم يكفهم أن يقفوا منه موقفا سلبيا (لاعليه ولا له) .

فليت اخلائي الذين اد خرتهم
جلاء لهمى لا على ولا ليا[٥٧]

وأما أية عجبه فإن يكون أبناء عمه وراء هذا الاضطهاد وتلك الحرب :

واعجب ما ياتى به الدهر اننى
ارى القوم ترمينى بأيدى رجاليا

ثم يقول :

الام بنى الاعمام نسقي نطاقها
اجاجا ويسقى الغير عذبا وصافيا[٥٨]

ويرى الشاعر نفسه محاصرا بالشر والوقيعة في وطنه وبين أهله ، بل يجد نفسه هدفا لنبال الأذي ، فيصور هذا الموقف في دقة وصراحة وصدق فيقول :

ارى الشر قداما وخلفا واتقى
نبال الاذي عن يمنة وشمال[٥٩]

ثم يصور أثر همه المتواصل والمتزايد ، وما خلفه من آثار سيئة في نفسه ، وليس أدل على تأثير الهم على نفسه من ازالته لمخ عظمه ، وما عاناه ـ بالتالى ـ من هزال ، فيقول :

اذا قلت جلى بعض همى أتت له
نوائب امضي من حدود نصال

وقد مص مخ العظم حتى ازاله
وأبدله من ليه بهزال[٦٠]

وكان عليه أن يحنى رأسه للعاصفة ، وأن يسبح مع التيار ، ويدارى هذا وذاك ، وقد صور ما يتكلفه من معاناة فى سبيل ذلك :

اداريهم حتى كانى لديهم
أسير طعان أو أسير سؤال[٦١]

ولما أعياه الصبر ، ويئس من مطاولة القوم ، ومداراتهم قال :

فيارب لا صبرا على ذا ولا بقا
فسق فرجاً اولا فموتا معجلا[٦٢]

وبلغت شكواه في هذا البيت قصاراها ، بما حمله من معانى اليأس والقنوط .

وقد صاحبته هذه النغمات الحزينة طوال رحلة حياته ، ولم تكن شكواه مقصورة على مشكلته الخاصة ، فقد كان الى جانب النغم الحزين ، نغم آخر لا يقل حزنا عنه ، ولكنه نغم ذو بعد وطنى أخذ يعزفه منذ أن بدأت أحوال قومه تسوء ، وسلطانهم يضعف ، والاطماع فيه تتنامى ، والمؤامرات فى الداخل تحاك ، وينجح مخططوها في تنفيذها . وعندئذ شغل بواقعه العام عن واقعه الخاص ، فشكا بحسرة ماآلت اليه أمورهم :

كنت قبل اليوم ابكى بشجى
هم نفسي وطريفى وتلادي(٦٣)
ثم قد اصبحت ابكى ناسيا
شجو إخوانى ورهطى وبلادى

ويمضى على هذا المنوال ، حتى تبلغ به الحسرة مبلغها ، فيلفظها صرخات مدوية ، نادبة مستنجدة يائسة فيقول :

يا للرجال ! الا فتى ذو نجدة
يحمى بمنصله على العلياء
تالله اقسم لو دعوت بندبتى
حيا للبى دعوتى وندائى
لكننى ناديت موتى لم تزل
اشباحهم تمشى مع الاحياء
الفوا الهوان فلو تناءى عنهم
لسعوا لبغيته الى صنعاء(٦٤)

فالحرمان في هذه الأبيات - كما يعتقد عمران العمران(٦٥) - جماعى عام ، لأن تقلص ظل العصاميين الافذاذ من البلد ، يعد حرمانا من مجموعة قيم وأخلاق انسانية مثلى .. وكم هى نعمة كبرى لو توفر العصاميون الذين يقدرون مسئولية الواجب بين ظهرانى الشاعر ، ليعطوا الحياة حقها . ولعلى لا أجانب الحقيقة اذا قلت أن حرمان البحرين وقاطنيها يو مذاك ، قد يفوق حرمان ابن المقرب.

ويستمر الخط البيانى لهذه النغمات الشاكية في الصعود ، حتى يصل منتهاه عند ما نجح المتآمرون - على عهد الامير أبى القاسم مسعود بن محمد العيونى - في الاستيلاء على ما بقى من أملاك العيونيين ، حتى أصبح العيونيون أمراء بلا سلطة وبلا أرض ، وهنا يتفجع ابن المقرب لما آلت اليه حالهم ، شاكيا قسوة الدهر ، وسوء الحظ وفساد التدبير .

بعض الذي نالنا يادهر يكفينا
فامنن ببقيا واودعها يدافينا
إن كان شانك ارضاء العدو بنا
فدون هذا به يرضى معادينا
فالحمد لله حمداً لانفاد له
اذ لم يكن ضعفنا الا بأيدينا(٦٦)

ومن القصيدة ذاتها يقول :

يا ليت شعرى أى الذنب كان لنا
حتى به اجتيح دانينا وقاصينا
اضحت بساتيننا نفدى باحسنها
شقصا لادنى خسيس من موالينا
بجلة التمر والشاة الرعوم غدت
املاكنا واحتمت املاك عادينا

إنـا الى الله لا ارحـامنـا نفعت
ولا طعـان حمـاة القـوم يحمينـا
هـذا الجـزاء لمـا سنت أسنتنـا
يـا للرجـال وما امضت مـواضينـا

يشكو الشاعر في قصيدته من حرمان جمـاعى ، ويتحسر بلسان الجماعة ، مما أشاع في كثير من الفاظه ضمير المتكلمين (نا) ، بل كان هذا الضمير روى القصيدة ، وايقاعا مشتركا فيها ، فلم يعد وضع الشاعر مختلفا عن سائر قومه ، وليس أهل الاحساء بعامه - أحسن حظا منه . لذا أخذ الشاعر يردد هذه النغمات الحزينة الشاكية معبرا بها عن وجدان جماعى ، أو بمعنى أصح عن حرمان جماعى .

ويوالى الشاعر شكواه وتفجعه في استسلام ويأس . فيقول من القصيدة ذاتها :

يا ضيعة العمر يا خسران صفقتنا
يا شوم حـاضرنا الاشقى وبـادينا
كنـا نخاف انتقـال الملك في مضر
فمـرحبـا بك يـا ملك اليمانينـا
فإن تولت ملـوك الروم مـا بلغت
معشـار ما صنعت اخـوالنا فينـا
كنـا نضج من الحـرمان عنـدهم
ونطلب الجـاه فيهم والبسـاتينـا
فـاليوم نفـرح ان يبقوا لمـوسرنا
من ارث جديه سهما من ثمانينا(٦٧)

الى أن يقول :

نـال المعـانـد منـا مـا يحـاولـه
سـراً وجهرا وتعـريضاً وتعيينـا

والملاحظ على الشكوى عند ابن المقرب أنها ثمرة معاناة حقيقية ، فجاءت صادقة الاحساس ، نقرأ شكواه ، فنحس أنها قد نبعت من نفس شاعر مطبوع ، ولعل هذا هو ما دفع المستشرق ، دى جويا(٦٨) للثناء على شعر الشكوى عنده .

كما يلاحظ على شكواه أنها جاءت صدى لحرمانه واخفاقه ، وأن الشاعر - في أخريات دولتهم - قد شغله واقعه العام عن واقعه الشخصى ، فأخذ يتغنى بآلام الجماعة ، وماعانته من حرمان جماعى ، حين تعـذر على السلطة الحاكمة في البحرين أن تدرأ الأذي عن رعيتها ، وتشيع شيئا من الامن في نفوسها ، فحقق لشعره بعدا وطنيا بهذه النغمات الجماعية .

(٣)
النصح والعتاب

يكاد شعره في النصح والعتاب يبلغ مقدار شعره فى الشكوى ، فقد بلغت أبياته نحو أربعمائة وسبعين بيتا ، جاء اكثرها فى ثنايا قصائد المدح ، وخاصة مدائحه في امراء أسرته عدا الأمير محمد بن أبى الحسين .(٦٩)

ولكن لماذا نجد هذا الغرض يحتل هذه المساحة والمكانة في شعره ويتقدم اغـراضا اكثـر شهرة ، كـالهجاء والرثاء ، والغزل ..؟

إن مكـانة الشـاعر في قـومه ومـا خصـه الله بن من تعقـل ، وفصاحة ، وحكمة ، وحس مرهف

مضافا اليها الظروف الصعبة التى كانت تمربها دولتهم ، كل هذا وذاك دفع بابن المقرب إلى هذا الميدان ، وسمح له بأن ينصب نفسه ناصحا شفيقا ، يحدد الداء ، ويصف الدواء .

وعلى الرغم من محاولاتهم المستمرة بهدف ابعاده ، وحجبه عن الظهور على مسرح الأحداث السياسية ، الا أنه لم يكن يألو جهدا في الزج بنفسه في معترك الاحداث ، منتقدا سياستهم ، عاتبا عليهم تهاونهم ، فاتحا أعينهم على الحقيقة المرة من حولهم ، واضعا أيديهم على مواطن ضعفهم ، فمن قصيدة له يمدح فيها أمير الاحساء أبا منصور على بن محمد بن عبدالله بن على يقول ناصحا :

إيها ابا المنصور يقظة ثائر
بطل لعلياه يغار ويغضب
لا تركنن الى العدو ولا تطع
آراء من في حبل غيرك يحطب
واعص الذليل اذا اشار ولا تثق
في الكائنات بكل من تستصحب
واعلم بان الناس قد جربتهم
فاذا صحيح الود منهم عقرب
[illegible]حة ماجد باعدته
[illegible]وهو الاقرب(٧٠)
[illegible]اء

ناصحا :

أهلكت قومك فى رضا الواشى بها
ما اقرب الواشين منك وابعدا
فاستبق قومك للخطوب ولا تكن
سيفا عليهم بالهلاك مجردا(٧١)

ومن القصيدة ذاتها يقول :

فالن لذي القربى جنابك لينه
لعدوك استشرى عليك وعربدا
واعرف على حام لسام فضله
لتكون في بعض الامور مسددا
فلتندمن ولات حين ندامة
تغنى ومن سقى المدامة غردا

ونصح قومه بألايهملوا القوة فإن مصدر قوتهم يكمن في جندهم وحسن تسليحهم ، فقال مخاطبا الامير العيونى الحاكم أبا على محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل :

وجندك رشهم ما استطعت ولا تكن
وان غفلوا عن ربهم متغافلا
فما الجند الا جنة تتقى بها
غوائل مولى او عدوا مصاولا(٧٢)

وهو اذ يحدد الداء ، يصف الدواء ، فها هو ذا ينصحهم بالاعتصام بالقوة ، ويشير عليهم بأن يسودوه ويأخذوا برأيه :

فقوموا بعزم واجعلونى مقدما
فاى حسام لم ترصع حمائله
وسيروا على طير الفلاح فقد ارى
رسول الجلا وافى وقامت دلائله
فانى كفيل بالخراب لبلدة
يراعى بها من كل حى اراذ له(٧٣)

وكان يعلم يقينا أن سياسة قومه

المتهاونة مع أعدائهم ، هى سبب بلائهم ، ولا بد لهم من وقفة قوية صلبة :

الا يا لقومى الاكرمين متى ارى
بنا الخيل تهوى مطبقات صروعها(٧٤)

ويتكرر مثل هذا النداء - كثيرا - عنده ، وتتوالى تساؤلاته الحائرة (متى أرى .. وهل أرى .. والام ...) ومنه قوله :

الا يا لقومى من ربيعة هل ارى
لكم يوم باس يصدم الجهل بالجهل
الام تقاسون الهوان اذلة
وانتم اذا كوثرتم عدد النمل
يسوقكم كرها الى ما يسوؤكم
عبيدكم سوق الاحيمره الهزل(٧٥)

ويبدو أن تساؤلاته كانت بمثابة حث ، وتحريض ، واثارة لقومه ، ليصحوا من غفوتهم ، وينهضوا من كبوتهم، ويتنبهوا لفتن المتآمرين المبثوثة بينهم ، ومن حولهم .. ولكن نصائح الشاعر وصرخاته ، كانت تذهب أدراج الرياح ، وتتلاشى كأنها « صرخة فى واد » فالقوم قد تمكن العجز من نفوسهم ، فاستسلموا يائسين :

ارجال عبدالقيس كم ادعوكم
في كل حين للعلا واوان
فتراكم موتى فاسكت ام ترى
خلقت رؤوسكم بلا اذا ان(٧٦)

ولكن الشاعر لم يمل ، شأن المصلحين المخلصين ، ويبقى الامل يراوده ، فواصل تنديده بسياستهم ، وما آل اليه حالهم ومنه قوله :

ايه بقايا عبد قيس انه
لا خير في مـاض بكف جبان
لا تسقطن من هامكم وانوفكم
هم الرجال وغيره الفتيان
واستيقظوا فالسيل قد بلغ الزبى
وعلت غواربه على القربان
وذروا التحاسد والتنافس بينكم
فكلاهما نزغ من الشيطان
واستعملوا الانصاف واعصوا كاشحا
لفسادكم يسعى بكل لسان
وتداركوا اصلاح ما افسدتموا
مادمتم منه على الامكان(٧٧)

ويوالى نصحه لهم من القصيدة ذاتها ، مشيرا الى فرقتهم ، وتمكن الوشاة منهم ، وكان الاجدر ان يقصوهم عن صفوفهم ، ليتمكنوا من حماية أرضهم التى استوطنوها قرونا متطاولة منذ جاهليتهم ، والا فالهجرة خير لهم من بقائهم فى ذلة وخضوع ، قد يعرض شرفهم للاذى ، ويدفعهم مرغين الى التفريط بأعراضهم ، كما فرطوا بأملاكهم وأموالهم :

قد بان عجزكم وكلكم يد
عنهم فكيف وانتم حزبان
واقصوا رجالا كلهم في هلككم
وبواركم تجرى بغير عنان
واحموا دياركم التى عرفت بكم
من حين مقتل عامر الضحيان
اولا فإن الرأى ان تترحلوا
عنها لدار معرة وهـ
من قبل داهية يقول لها ا
منكم متى يومى فم
لا تحسبوا شر الـ
عنكم مصانه

واللـه لا كـف الاعـادى عنكـم
من دون سلب معـاجز النسـوان
لم يبق مال تتقون به العدى
لـربيعـة فيهـا ولا قحطـان[٧٨]

وعندما ازداد ضعف السلطة العيونية فى الاحساء ، ازداد بالتالى نفوذ البدو وعلا شأنهم ، وأخذوا يتحينـون الفـرصـة لا ستعـراض قوتهم ، بهدف اظهار عجز السلطة وضعفها ، فقد حدث فى زمن الامير أبى القاسم بن محمد العيونى أن قتل رجاله قاطع طريق من بنى عقيل ، فجاءه بنوعقيل مطالبين بدم قتيلهم ، امعانا منهم فى اذلال أهل الاحساء ، ويستجيب حكام الاحساء لمطالبهم بتدبير من بطانتهم الفاسدة ، ويتلقى ابن المقرب نبأ هذه الاهانة فينتفض عاتبا على الامير اياه ، ناصحا قومه بقصيدة من عامر الشعر ، تفيض بصادق الاحساس ، استهلها بهذه الابيات :

الى كم مداراة العدى واحتـرامها
وكم يعترينا ضيمهـا واهتضامهـا
أما حان يا فرعى ربيعة أن ارى
بنات الوغى يعلو الروابى قتامها
ردوا الحرب ورد الظامئات حياضها
خوامر يغتال الفصال ازد حـامها
وخـوضـوا لظـاهـا بـاقتحـام فـانما
يشـكف غمـاء الحـروب اقتحـامهـا
ولـوذوا ببيض المشرفية إنهـا
لها عزة قعساء واف ذمامهـا[٧٩]

ويعجب الشاعر للمعايير المعكوسة على أرض الاحساء ، فكرامهم - يقتلون غدرا ولا يودون وأما اللئام وقطاع الطرق فإن قتل احدهم فعليهم ان يتحملـوا ديته ، ويـدفعـوهـا صـاغرين ، فيقـول من القصيدة ذاتها :

فواسوأتـا ان كان يـودى قتيلها
على ذا ويدنى فى حمـانا مقـامها
ويقتـل بالغـدر الصريح كـرامنـا
فتلغى لقد خبنا وفـازت سهامهـا
اعيـذكـم ان تقبلـوا ذا وانتـم
ذؤابـة افص كلـهـا وسنـامـهـا

وحين نقرأ شعر النصح عند ابن المقرب ، نجده يضطرب بين الأمل واليأس وربما كان مؤشر اليأس عنده أقوى وأوضح :

وإن دولـة ولت قفـاهـا فـولهـا
قفـاك فاعيى كـل شيء رجـوعهـا
ولا تتعبن فى نصح من غاب رشده
وهون فخفاض المبانى رفوعها[٨٠]

ولما استبد به اليأس ، طالب قومه بأضعف الايمان ، وكان الحد الادنى عنده ، وعدا لا يفون به :

يا ساكنى الخط والاجزاع من هجر
هل انتظاركم شيئا سوى العطب
بحجت ممـا انـاديكم وانـدبكـم
لخـير منقلـب عـن شر منقلـب
فسكتـونـى بقـول لا تفـون بـه
قد صرت ارضى بوعد منكم كذب[٨١]

اذا فالنصح عند ابن المقرب ، ليس مجموعة من النصائح السلـوكية والخلقية ، يكيلها الى سامعيه فى تقريرية ممجوجة ، ولكن النصح عنده رصد لمظاهـر الضعف والانحلال

المتهاونة مع أعدائهم ، هى سبب بلائهم ، ولا بد لهم من وقفة قوية صلبة :

الا يا لقومى الاكرمين متى ارى
بنا الخيل تهوى مطبقات صروعها(٧٤)

ويتكرر مثل هذا النداء ـ كثيرا ـ عنده ، وتتوالى تساؤلاته الحائرة (متى أرى .. وهل أرى .. والام ...) ومنه قوله :

الا يا لقومى من ربيعة هل ارى
لكم يوم باس يصدم الجهل بالجهل
الام تقاسون الهوان اذلة
وانتم اذا كوثرتم عدد النمل
يسوقكم كرها الى ما يسوؤكم
عبيدكم سوق الاحيمره الهزل(٧٥)

ويبدو أن تساؤلاته كانت بمثابة حث ، وتحريض ، واثارة لقومه ، ليصحوا من غفوتهم ، وينهضوا من كبوتهم، ويتنبهوا لفتن المتآمرين المبثوثة بينهم ، ومن حولهم .. ولكن نصائح الشاعر وصرخاته ، كانت تذهب أدراج الرياح ، وتتلاشى كأنها « صرخة فى واد » فالقوم قد تمكن العجز من نفوسهم ، فاستسلموا يائسين :

أرجال عبدالقيس كم أدعوكم
فى كل حين للعلا واوان
فتراكم موتى فاسكت ام ترى
خلقت رؤوسكم بلا اذا ان(٧٦)

ولكن الشاعر لم يمل ، شأن المصلحين المخلصين ، ويبقى الامل يراوده ، فواصل تنديده بسياستهم ، وما آل اليه حالهم ومنه قوله :

ايه بقايا عبد قيس انه
لا خير فى مأض بكف جبان
لا تسقطن من هامكم وانوفكم
هم الرجال وغيره الفتيان
واستيقظوا فالسيل قد بلغ الزبى
وعلت غواربه على القربان
وذروا التحاسد والتنافس بينكم
فكلاهما نزغ من الشيطان
واستعملوا الانصاف واعصوا كاشحا
لفسادكم يسعى بكل لسان
وتداركوا اصلاح ما أفسدتموا
مادمتم منه على الامكان (٧٧)

ويوالى نصحه لهم من القصيدة ذاتها ، مشيرا الى فرقتهم ، وتمكن الوشاة منهم ، وكان الاجدر ان يقصوهم عن صفوفهم ، ليتمكنوا من حماية أرضهم التى استوطنوها قرونا متطاولة منذ جاهليتهم ، والا فالهجرة خير لهم من بقائهم فى ذلة وخضوع ، قد يعرض شرفهم للاذى ، ويدفعهم مرغين الى التفريط بأعراضهم ، كما فرطوا بأملاكهم وأموالهم :

قد بان عجزكم وكلكم يد
عنهم فكيف وانتم حزبان
واقصوا رجالا كلهم فى هلككم
وبواركم تجرى بغير عنان
واحموا دياركم التى عرفت بكم
من حين مقتل عامر الضحيان
اولا فإن الراى ان تترحلوا
عنها لدار معرة وهوان
من قبل داهية يقول لها الفتى
منكم متى يومى فما اشقانى
لا تحسبوا شر العدو تكفه
عنكم مصانعة وحمل جفان

السياسى فى مجتمعه ، وعرض للحلول الممكنة لراب الصدع ، وتلاحم الصفوف .

وان كنا نرى في نصحه لأبناء عمومته ، وعتابه لهم موقفا وطنيا يستحق عليه الثناء والتقدير ، فهذا لا يمنع ان نرى في نصحه وعتابه شيئا أبعد كان يرمى اليه ابن المقرب ، يجعلنا نثنى فيه على دهائه وولعه بالسياسة . فالنصح عنده كان أشبه ما يكون بتعرية لحكامهم والنفاذ إلى الحياة السياسية ، وكأنه كان يقوم بدور المعارضة السياسية لنظام حكمهم ، فيحاول اثارة الناس ضدهم بكشف مساوئهم ، وان بدا لهم في صورة الناصح الشفيق . ويبرر هذا موقف أبناء عمومته منه ، الذي لم يتغير مع تعاور العديد منهم على امارة الاحساء والقطيف . كما يبرره موقف الشاعر العنيد في أن يظل قريبا من مسرح الأحداث ، متربصا لأخطائهم ، غير عابىء بما يناله من ضيمهم وانكارهم لحقه وقدره ، وكأنه كان يتحين الفرصة للوثوب الى السلطة ، بعد أن هيأ النفوس للثورة .

ومما نعجب له أن شاعرنا قد التزم بقضية قومه طوال حياته ، على الرغم مما ناله منهم من أذي ومهانة ولكنه ظل على أصالته ، فلم تزعزعه النائبات، ولم تحركه قيد أنملة عن مبدئه ، فبقى منافحا عن عشيرته وقومه حتى وافته منيته ، وصدر فى نصحه وعتابه عن معاناة حقيقية ، وتجربة صادقة ، وطموح لا يكل .

وهو في هذا الميدان فارس سباق ، وقلما نجد في العصور الأدبية السابقة من كانت له مثل هذه المواقف المشرفة ، من الالتزام بقضايا مجتمعه .

النسيب (٤)

ونعنى بالنسيب ذلك الضرب من الشعر الذي صدربه شاعرنا ثلاثا وعشرين قصيدة من ديوانه ، في (٣٠٠) ثلاثمائة بيت ، وتحدث فيه عن حبيبته ، ووصف مظاهر الجمال فيها ، كما تحدث فيه عن حنينه اليها ، وشوقه الى لقائها ووصالها ، وما تحركه رسومها الدارسة ، ومابقى من ديارها بعد أن عبثت بها عوامل الطبيعة من رياح عاتية ، وأمطار غزيرة .

وقد اختلف القدامى والمحدثون فيما يراد بالنسيب والتشبيب والغزل ، فمنهم من يذهب الى أنها بمعنى واحد ، ومنهم من فرق بينها .(٨٢)

وقد تجاوز العرب فى التغنى بالمرأة كل حد حتى أصبحت هى اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد ، وهى الكلمة السحرية التى تفتح لها كنوز الشعر ، وحتى أصبحت عندهم كآلهة الشعر عند قدماء اليونان ، لا يبدأون الشعر الا بنجواها .(٨٣)

ويأتى نسيب ابن المقرب فى معظمه فى صدر قصيدة المديح ، ويبدأ نسيبه أحيانا بذكر ديار الأحبة ، ويلم من خلال وصفه لها ، بتحديد موقع

والله لا كف الاعادى عنكم
من دون سلب معاجز النسوان
لم يبق مال تتقون به العدى
لربيعة فيها ولا قحطان[٧٨]

وعندما ازداد ضعف السلطة العيونية فى الاحساء ، ازداد بالتالى نفوذ البدو وعلا شأنهم ، وأخذوا يتحينون الفرصة لاستعراض قوتهم ، بهدف اظهار عجز السلطة وضعفها ، فقد حدث فى زمن الامير أبى القاسم بن محمد العيونى أن قتل رجاله قاطع طريق من بنى عقيل ، فجاءه بنوعقيل مطالبين بدم قتيلهم ، امعانا منهم فى اذلال أهل الاحساء ، ويستجيب حكام الاحساء لمطالبهم بتدبير من بطانتهم الفاسدة ، ويتلقى ابن المقرب نبأ هذه الاهانة فينتفض عاتبا على الامير اياه ، ناصحا قومه بقصيدة من عامر الشعر ، تفيض بصادق الاحساس ، استهلها بهذه الابيات :

الى كم مداراة العدى واحترامها
وكم يعترينا ضيمها واهتضامها
اما حان يا فرعى ربيعة ان ارى
بنات الوغى يعلو الروابى قتامها
ردوا الحرب ورد الظامئات حياضها
خوامر يغتال الفصال ازد حامها
وخوضوا لظاها باقتحام فانما
يشكف غماء الحروب اقتحامها
ولوذوا ببيض المشرفية إنها
لها عزة قعساء واف ذمامها[٧٩]

ويعجب الشاعر للمعايير المعكوسة على أرض الاحساء ، فكرامهم ـ يقتلون غدرا ولا يودون وأما اللئام وقطاع الطرق فإن قتل احدهم فعليهم ان يتحملوا ديته ، ويدفعوها صاغرين ، فيقول من القصيدة ذاتها :

فواسوأتا ان كان يودى قتيلها
على ذا ويدنى فى حمانا مقامها
ويقتل بالغدر الصريح كرامنا
فتلغى لقد خبنا وفازت سهامها
اعيذكم ان تقبلوا ذا وانتم
ذؤابة افص كلها وسنامها

وحين نقرأ شعر النصح عند ابن المقرب ، نجده يضطرب بين الأمل واليأس وربما كان مؤشر اليأس عنده أقوى وأوضح :

وإن دولة ولت قفاها فولها
قفاك فاعيى كل شيء رجوعها
ولا تتعبن فى نصح من غاب رشده
وهون فخفاض المبانى رفوعها[٨٠]

ولما استبد به اليأس ، طالب قومه بأضعف الايمان ، وكان الحد الادنى عنده ، وعدا لا يفون به :

يا ساكنى الخط والاجزاع من هجر
هل انتظاركم شيئا سوى العطب
بحجت مما أناديكم واندبكم
لخير منقلب عن شر منقلب
فسكتونى بقول لا تفون به
قد صرت أرضى بوعد منكم كذب[٨١]

اذا فالنصح عند ابن المقرب ، ليس مجموعة من النصائح السلوكية والخلقية ، يكيلها الى سامعيه فى تقريرية ممجوجة ، ولكن النصح عنده رصد لمظاهر الضعف والانحلال

المنازل ، وسفحه الدمع الغزير عليها ، وتعداده لما صمد من آياتها من الأوتاد ، والاثافى ، وبقايا الرماد ، وأحصاؤه لما أخني عليها من رياح وأمطار :

امن دمنه بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
عفت غير أرى واورق حائل
واشعث مشجوج وسفع روامك[٨٤]
ونؤى كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصا بالموجنات الحواشك[٨٥]

وابن المقرب فى هذه المقدمة يعيد على مسامعنا مقدمات شعرائنا الاول ، فالالفاظ فيها وعورة البادية وخشونتها ، والصورة فى قوله (ونؤى كجذم الحوض ..) مستوحات من البيئة البدوية .

ولا يقف الشاعر عند وصف أطلال الحبيبة ، بل قد ينتقل منها الى وصف الظعن وما انتابه غداة البين من هم وألم :

كان فؤداى ناطه ذو سخيمة
قليل التحنى فى صدور النيازك
غداة تداعى الحى بالبين بعدما
جلا الصبح أعجاز النجوم الدوالك[٨٦]

ثم يستطرد فى وصف تلك الابل القوية السريعة التى حملت حبيبته ورفقتها ، وكأنه يوحى من خلال هذا الوصف الى بعد المكان الذي أزمعوا الرحيل اليه ، والسرعة فى الرحيل :

وقد قربوا للبين كل همرجل
أمون القرى ضخم العثانين تامك
قمطر درفس قيسرى كانما
مناكبه جللن وشي الدرانك
رعى واجفا فالصلب من أجبل الغضا
بحيث استهلت كل وطفاء رامك[٨٧]

وقد يستكمل عناصر الصورة فيتناول صاحبات حبيبته المفارقة ، فيشبههن بالظباء ، ذوات خصور دقيقة ، وشفاه سوداء واعجاز كأنها مرتفع الرمل ، ويبتسمن فيبدين أسنانا كزهر الأقاحى :

وفى الجيرة الفادين لا عن ملالة
ظباء على تلك الهجان البوائك
خماص الحشاحم الشفاه كانما
يلثن مروط العصب فوق العوانك
ويبسمن عن نور الاقاحى لم يزل
يغذى بدرات الذهاب الركائك[٨٨]

ويخلص من هذا الى وصف حبيبته التى لا يشغله فيها سوى تلك الانفاس العطرة ، والطيب الذي ينبعث منها :

وفيهن من ذهل بن شيبان غادة
يطيب رياها عبير المداوك
كان على فيها سلافة قرقف
وقد غورت ان النجوم الشوابك[٨٩]

ونراه حينا يتوقع البين لما يراه من تأهب صاحبته للرحيل ، فيتصدع قلبه حسرة ، اذ يتصور ديارها وقد أقفرت منها ، وفقدت أنسها :

غدا نغتدى للبين أو نتروح
وعند النوى يبدو الغرام المبرح
غدا تقفر الاطلال ممن نوده
ويمسى غراب البين فيها ويصبح

غدا تذهب الاظعان يمنى ويسره
ويحدو تواليها نجاح ومنجح[٩٠]

ولكنه يحاول أن يتجلد ، ويحتفظ بدموعه ، حتى يصبح رحيل الأحبة حقيقة لا مجرد توهم وتخمين ، فيقول من القصيدة ذاتها :

فيا باكيا قبل النوى خشية النوى
رويدا بعين جفنها سوف يقرح
ولا تعجلن واستبق دمعك اننى
رأيت السحاب الجون بالقطر ينزح
اذا كنت تبكى والاحبة لم يرد
ببينهم الا حديث مطوح
فكيف اذا ما اصبحت عين مالك
وحبل الغضا من دونهم والمسيح
فكف شئون الدمع حتى تحثها
غداً ثم تهمى كيف شاءت وتسفح

ويلمع البرق عن بعد فيذكره هوى الحبيبة ، وثغرها الجميل ، وجبينها الوضاح ، مما يجعله وشيك النطق باسمها ، فيقول من القصيدة ذاتها :

خليلى هبا من كرى النوم وانظرا
مخائل هذا البرق من حيث يلمح
لقد كدت مما كاد أن يستفزنى
أبوح بسرى فى الهوى وأصرح
ذكرت به ثغر الحبيب وحسنه
اذا ما تجلى ضاحكا وهو يمرح
ويا حبذا ذاك الجبين الذي غدا
يلوح عليه الزعفران المذرح[٩١]

وربما رحلت الحبيبة ، واقفرت ديارها بعدها ، فينتابه ألم كبير لافتقادها واذ ما طاف خيالها به هاجت ذكرياته وما تحمله فى طياتها من أوقات سعيدة خلت مما يعكر صفوها ، ومنه قوله :

سمالك من أم العبيد خيال
ودون لقاها اجرع وسيال
سما ومطايانا كأن اقتحامها
غوارب امواج الفرات فيال
فاهدى سروراً عازبا كان قد مضى
وانسته أيام مررن طوال
وعاد فلم يلبث فواقا كأنما
عليه بتعجيل الرجوع كفال
فشايعته اقضى الذمام لأننى
لذاك أب فى الحالتين وخال
الى ان بلغنا الجسر والترعة التى
بأكنافها الحى الكرام حلال[٩٢]

ويسرف ابن المقرب أحيانا فى هذا النسيب الذي يبدأ به قصائده ، وقد يمتد ليصل الى اثنين وعشرين بيتا ، حتى ليظن أنه هو الغرض الاساسي . كما يزخر شعر النسيب عنده بأسماء كثير من النساء فذكر : دعد ، وزينب ، وهند وأميم ، وسعدى ، وسلم ، ومن دعاها « أم العبيد » وأخرى ذكر أنها « ذات الخال » وامرأة تدعى « شريكية مرية » وفتاة سماها « بالكاعب الحسناء » ، وأخرى أطلق عليها « غرة حى بنى جشم » ، وحسناء دعاها « غادة ذهل بن شيبان » وأخرى أطلق عليها « بنت المقاول » .

وهذه الاسماء معظمها مما جرى على السنة الشعراء ، ورددوه في أشعارهم ،[٩٣] وربما كان وجودها لضرورة عروضية ، كقوله :

يظن نحولى ذو السفاهة والغبا
غراماً بهند واشتياقاً الى (دعد)[٩٤]

وقد تكون هذه الأسماء مستعارة ، لأنهم كانوا لا يحبون أن تذيع أسماء صاحباتهم الحقيقية ويعرفها الناس . وربما كانت هذه الأسماء لا تعنى تعدد تجاربه فى الحب ، ولكنها تعنى على الاقل أنه قد أحب أكثر من واحدة ، ولم لا فقد كانت حياته حافلة بالرحلة والانتقال، ما بين بادية وحاضرة ، فليس معقولا أن تخلو مثل شخصيته الحية المتفاعلة مع ما حولها من تجربة حب حقيقية .

وابن المقرب يحدثنا عن أوصاف (خمس) من صاحباته وهن : بنت المقاول ، وغادة ذهل بن شيبان ، وذات الخال ، وسلم ، وأخرى مجهولة .

أما بنت المقاول : فهى بيضاء كالبدر جمالا تختال في حللها القشيبة ، بديعة الحسن ، نادرة المثيل ، يرنحها الصبا والدلال والاعجاب بنفسها .[٩٥]

أما تلك الغادة من ذهل بن شيبان : فهى طيبة النشر ، ذات أنفاس عطرة .[٩٦]

أما ذات الخال : فألحاظها فتاكة ، ووجهها مشرق جميل ، يضيء الدجى من وراء خمارها ، واذا ما سفرت بزت الشمس إشراقا وبهاء ، لها سحر لا يقاوم وقوام كغصن البان لينا .[٩٧] .

و أما سلم : فهى بيضاء تنوب عن الشمس في حال كسوفها .[٩٨]

أما الأخيرة المجهولة : فهى كخوط البان لينا ، ذات خصر دقيق ، وألحاظ قاتلة .[٩٩]

وقال في غانيات بغداد :

فكم لذة قضيت فى حجراتها
مع الغانيات المائسات النواعم
عذاب الثنايا ناهدات خرائد
حسان الذرايا واضحات المعاصم[١٠٠]

هذه هى المحاسن التى كانت تروق ابن المقرب فى المرأة وهى في مجموعها صفات نموذجية تصور المثل الأعلى للجمال فى المجتمع البدوى ، وقد سبقه اليها كثير من شعرائنا القدامى ووصفوا بها حبيباتهم ، وتداولوها ، حتى نكاد لا نلمس اختلافا بين هؤلاء الشعراء الامن حيث التصوير لهذه المحاسن .

وقد يتجاوز ابن المقرب ـ أحيانا ـ تلك المحاسن الحسية ، الى الاشارة لبعض الصفات الخلقية ، فهو فى بنت المقاول :

راتنى فابدت عن أسيل وحجبت
بذى معصم جدل يعض به القلب[١٠١]

فهو يريد من وراء هذه الصورة الحسية، أن يثنى على خلق صاحبته، لما تتسم به من الحياء والدلال حتى انها لتتقى من تخشى نظراته بيدها.

أما عواطف المرأة، وهمومها، ورغباتها، وتفكيرها فأمور لم يولها اهتمامه، ويتجاهلها شأنه في ذلك شأن الكثير من أسلافه، فلا نكاد نجد في شعره ما اشتهر به شعراء الحجاز

الغزلـون في العصر الأموي، من رسم عـواطف الحبيبـة، وتلونها بين فـرح وحـــزن، ولهفـة وخـــوف من الأهل والـرقيب.. في قصيدة لـه يمدح فيهـا عميد الدولة، يقول في معرض نسيبه:

لولا الهوى لم ارو شعراً منسباً
يقصر عن ايراده كل ناظم(١٠٢)

فهل أحب ابن المقرب حقا ؟ وهل عانى آلام العشق ، وصدر في غزله عن تجربة صادقة ؟

ان مانظمه شاعرنا في هذا الضرب من الشعر ، جاء في صدور مدائحه محـاكاة لمعـاصريه وأسـلافه من شعرائنا ، فهو يقصد اليه قصدا ، ولايكاد يخرج فيه عن الذوق الفنى المـوروث الذي استقـرق وجـدان شعرائنا ، ومتذوقى ابداعهم آنذاك ، فقد « اصبح الغـزل مقصدا من مقاصد القول ، لا احساسا ذاتيا بالمرأة ، فهو يلتصق بأول القصيدة كنوع من التقاسيم التى يصطنعها العـازفون قبـل اللحن الـرئيسي ، والشاعر عندئذ يلجأ الى استيحاء معان مما سبق أن طرقها الأقدمون ، فيتحدث عن غلبة الوجد عليـه ، ولجوئه للبكـاء ليشتفى قلبه من الجوى ، ورؤيته لأطلال الاحباء .. الى غير ذلك من المعانى التقليدية» .(١٠٣)

ولكننا لا نعدم فى شعر ابن المقرب غزلا يحمل فى طياته مشاعر صادقة ، تومىء ، الى قلب متيم ، وصدر في هذا الشعر القليل عن تجربة حب حقيقية ، ففى البصرة يلم به طيف حبيبته التى فارقها فى الاحساء ، فهيج هذا الخيال مشاعره ، وأحيا كامن الذكريات فى نفسه :

سمـالـك من أم العبيـد خيـال
ودون لقـاهـا أجـرع وسيـال
سمـا ومطايـانـا كـان اقتحـامهـا
غـوارب أمـواج الفـرات فيـال
فاهدى سروراً عازباً كان قد مضي
وانستـه ايـام مـررن طـوال(١٠٤)

ولكن هذا الطيف الذي ألم به ، سرعان ما قفل راجعا :

وعـاد فلم يلبث فـواقـا كـانمـا
عليـه بتعجيـل الـرجـوع كفـال

وترك الشاعر غارقا فى أحلام اليقظة ، وهو يتابع ذلك الطيف فى رحلة العودة حتى وصل به الى مشارف وطنه :

فشـايعتـه اقضى الـذمـام لأننى
لـذاك اب في الحـالتـين وخـال
إلى أن بلغنـا الجسر والترعـة التي
باكنـافهـا الحى الكـرام حـلال

فيستيقظ فجأة من حلمه الجميل ، ليعيش آلام حبه التى حركها طيف الحبيبة العابر ؟

وحانت لعينى يقظة بـان عندهـا
بـان الذي قـد كنت فيـه محـال
فواها لهـا تهويمـة بعثت جوى
حـرمت لـه اللـذات وهى حـلال